صورة اليهود في رواية ممدوح عدوان
"أعدائي"

د. عادل الأسطة / جامعة النجاح / فلسطين

يثير قارئ رواية ممدوح عدوان (١٩٤١-٢٠٠٤)[١] "أعدائي"[٢] (٢٠٠٠) وهو يبحث عن صورة اليهود فيها أسئلة عديدة أبرزها :

-هل تختلف صورة اليهود فيها عن الصورة التي أظهرتها لهم النصوص الأدبية العربية السابقة ؟

-ما المصادر التي اعتمد عليها الكاتب في أثناء تشكيله نصه ، بخاصة فيما يمس اليهود ؟

وتجدر الإشارة إلى أن ممدوح عدوان كتب عن مرحلة زمنية لم يكن شاهداً عليها ، فالزمن الروائي يمتد ما بين ١٩١٤ و ١٩١٨ . وهذا يعني أن عدوان لم يكتب عن تجربة معيشة وعن أشخاص عرفهم عن قرب ، وكتابته عن اليهود هي كتابة تتناسل من كتابة ، ونصه هو ثمرة نصوص عديدة ، كان للمخيلة دور في إنجازه .

واعتماداً على النصوص الفوقية يمكن القول إن المؤلف كان يسقط بعض تجاربه المعيشية على بعض شخوص روايته ، وهذا يعني أن الزمن الكتابي كان يترك أثراً على الزمن الروائي . يقر ممدوح عدوان في بعض المقابلات التي أجريت معه بهذا ، ويقول لفيصل درّاج :

"في روايتي الأخيرة "أعدائي" شاب يحب ظل فتاة ، هذه التجربة هي تجربتي أنا ، أنا فعلاً أحببت ظلاً ، وفي الرواية أيضاً موقف المبغى الذي لا ينسجم فيه إبراهيم ويهرب منه ، هذا حدث معي أيضاً . كان في دمشق مبغى ، ارتفع مكانه مبنى كلية الهندسة الآن ، وقد أخذني إليه صديقي (مدعوا طبعاً) وحدث معي ما حدث لإبراهيم ، والأهم من ذلك أن التجربة الجنسية الفاشلة التي حدثت لإبراهيم ، إذ رأى وجه أبيه في الصورة المعلقة لزوج المرأة المغوية ، هي تجربة حدثت معي أيضاً ، وكنت في السنة الجامعية الأخيرة"[٣] .

ولا يستطيع المرء ، وهو يقرأ الرواية ، أن يغض الطرف عن تأثير الزمن الكتابي على الزمن الروائي ، وعن الفارق بينما يصدر عن الشخوص حقيقة ، وما ينطقها به المؤلف الذي أظن أنه هو السارد نفسه ، وأنه أيضاً يقف وراء كثير من كلام شخوصه .

يطارد عارف الإبراهيم ، وهو ضابط عربي نابلسي في الجيش العثماني ، الجاسوس اليهودي (ألتر ليفي) ، وحين يلقي القبض عليه يسلمه إلى الجهات المختصة فتفرج هذه عنه ، ويجلس عارف ، في دمشق ، في مقهى ، وهناك يلتقي بـ (ألتر ليفي) وقد أطلق سراحه . ويخاطب الأخير عارفاً قائلاً له :

"لا تأخذ صاحباً إلا بعد قتله . ونحن صرنا أصحاباً . تفضل تفضل .

تعال وقل لي : ما هي أخبارك ؟ والله العظيم ظل بالي عندك . بصراحة هيأتك لا تعجبني . شده من كتفه وأجلسه بقوة : قلت لك يا عارف بك : ما راح انعدم . وقهقه : قلت لك بريء ما صدقتني . في الديوان الحربي صدقوني . المهم أبو إبراهيم ، الآن الدنيا جديدة ، والدولاب يقلب ويدور . يجوز أن أحوالك ليست على التمام ، أخوك بالخدمة . واليد طائلة والحمد لله . الجماعة أصحابنا . وكلمتنا عندهم لا تصير اثنتين . أأمرني بأية خدمة . من عيني هذه قبل هذه . أنا سوف ..."[٤] .

ويخيل إليّ أن الإفراج عن (ألتر ليفي) ، بعد رحلة مطاردة طويلة ، ليس سوى دلالة رمزية لما حدث في المنطقة العربية . وأظن أن الزمن الكتابي ترك أثره على الزمن الروائي . حارب العرب إسرائيل لسنوات ، وانتهت الحروب بعقد مؤتمر صلح جليس فيه الطرفان حول طاولة المفاوضات ، تماماً كما جلس عارف الإبراهيم و(ألتر ليفي) حول طاولة في مقهى في دمشق .

وإذا كانت هناك أقوال زعم أصحابها أن بعض الأنظمة العربية لم تكن يوماً تهدف إلى القضاء على إسرائيل ، على الرغم من كل الحروب ، وأن هناك من الحكام العرب من كان يؤدي خدمات لإسرائيل ، على الرغم من تظاهره بالعداء معها ، فإن الرواية في فصلها الأول لا تخلو من أقوال تشبه هذه تنطبق على ما جرى في حينه . يطارد بعض ضباط الجيش العثماني الجواسيس ، ومنهم اليهود ، وتكون المفاجأة أن المسؤول عن الضباط ، وهو جمال باشا ، يتعاون مع بعض الجواسيس ، وهو الذي يطلق سراحهم ويدعو إلى غض النظر عنهم . حين يلاحق بعض الضباط الجاسوس (ألتر ليفي) يتساءل جمال باشا :

"لماذا يلاحقونه أصلاً"[٥] .

"لا أريد أن يجلب لي أحد منكم بعد اليوم سيرة ألتر ليفي أو آرون آرونسون . مفهوم"[٦] .

"ألتر لا أحد يقترب منه الآن . مفهوم"[٧] .

بل إن جمال باشا يقرر ، حين يعرف أن عارف بك الإبراهيم يطارد (ألتر ليفي) ، نقله من مكان عمله عقاباً له . ولا يكلف جمال عارفاً بإلقاء القبض على (ألتر) إلا حين تطلب من جمال هذا الطلب عشيقته سارة اليهودية . وهي لعبة لتوحي سارة من خلالها لجمال باشا أنها ليست على صلة بـ (ألتر) ، على الرغم من أنهما جاسوسان يعملان في منظمة واحدة .

وإذا كنا نميز بين المعنى والمغزى ، فيمكن القول إن عبارات ممدوح عدوان تحمل معاني أخرى غير المعنى الذي تقوله الحروف . ويحق لنا أن نتساءل : إذا كان عدوان أسقط تجربته المعيشة على إبراهيم ، فلماذا لا يسقط

بعض الآراء المنتشرة في زماننا على تلك الفترة ؟ ولماذا نغفل تأثير الزمن الكتابي على الزمن الروائي ؟

تفتتح الرواية بالفقرة التالية :
"ملعون أبو هذه الدنيا ، ملعون أبو هذا العمر الخراء . نظل طوال عمرنا في الذنب . دائماً إلى الوراء . مثل بعر الجمال .. مثل فلو الجحاش .."

أنا ؟ أنا عارف الإبراهيم أصل إلى هذه المواصيل ؟ أصير مضحكة ؟ إذا كانوا هم يقبلون أن يصيروا مضحكة ، فأنا لا أقبل . هم لا يحسبون أن للأمر علاقة بالكرامة . ومعظمهم يتخلصون من الإحراج كله بأن يقولوا : هذا من اختصاص مصلحة مكافحة الجاسوسية . والجميع يكتفون بالقول : عسكرنا حمير "[٨] .

ويبدو لعن الدنيا ، لما وصلت إليه الأمور ، كلاماً صادراً عن عارف في حينه ، وعن مثل عارف في زماننا . وكثيرون منا يلعنون دنيانا وما وصلت إليه الأمور ، ويرون أن العرب الآن صاروا مضحكة أهل زماننا .

صورة اليهود من خلال النص المحيط :

سأكتفي ، في أثناء الكتابة عن النص المحيط ، بالنصوص المكتوبة ، وسأغض النظر عن الرسوم ، وتحديداً عن لوحة الغلاف[٩] . يكتب اسم الكاتب باللون الأبيض جهة اليمين أعلى الصفحة ، وتكتب مفردتا "أعدائي" باللون الأحمر ، بحرف اسمك من الحرف الذي كتب فيه اسم المؤلف ، جهة اليسار أعلى الصفحة ، ولكن اسفل اسم المؤلف . وحين يقرأ المرء اسم المؤلف والعنوان معاً فإنه سيربط بينهما ، وبالتالي فإنه سيظن للوهلة الأولى أنه سيقرأ عن أعداء ممدوح عدوان ، ذاهباً إلى أن الضمير في أعدائي يعود إلى الاسم المدرج على صفحة الغلاف ، أي اسم الكاتب . غير أن ما يصرف الذهن عن هذا التفكير هو ما كتب على صفحة الغلاف الأخيرة :
"هذه الرواية تنبض بأحداث وتفاصيل فترة الحكم العثماني لحظة انهياره" .

وتقول هذه العبارة وملا تلاها من عبارات إن الضمير في مفردتي "أعدائي" لا يعود إلى ممدوح عدوان ، وأن الأنا التي تنطق العبارة هي أنا أخرى غير أنا المؤلف . وإذا ما عدنا إلى ما ذهبنا إليه من أن الزمن الكتابي يترك تأثيره على الزمن الروائي ، وإذا ما أخذنا باعتراف المؤلف من أنه أسقط بعض تجاربه على بعض شخوصه ، جاز لنا أن نزعم أن الأنا الناطقة قد تكون

أنا ممدوح عدوان مختفية وراء شخصية إبراهيم بن عارف الإبراهيم . وهذا خلافاً لوالده عارف الذي ظل مخلصاً للدولة العثمانية ولم يعد النظر في آرائه ومعتقداته إلا في لحظات انهيارها الأخيرة ، إبراهيم هذا هو ذو نزعة وطنية معادية للأتراك . إنه ينتمي إلى الثورة العربية في لحظة انطلاقها . ويحدد إبراهيم أعداءه ، يرد على لسان السارد ما يلي :

"وصار يتمنى أن يقضي عمره إلى جانب هؤلاء ليتشبع من أحاديثهم . وفي الوقت نفسه يتمنى أن يتناول سلاحاً ويخرج به . ويبدأ بإطلاق النار على كل من يصدفه من الأعداء : العثمانيين والصهيونيين والخونة والعملاء والدرك ، من باب السجن حتى الباب العالي في اسطنبول"[١٠] .

ويظل البحث عن الضمير والجهة التي نطقت به قابلاً لتأويلات عديدة . وإذا ما استنطقنا اللون ودلالته ليساعدنا في تحديد الجهة الناطقة ، فهل نذهب إلى أن أنا عدوان الذي يختبئ وراء إبراهيم هي أنا بيضاء لأنها تريد للعرب عالماً أفضل ، حيث تنخرط في النضال ضد الظلم التركي والاستيطان اليهودي في فلسطين . وأن أعداء هذه الأنا هم اليهود والأتراك معاً ؟

إن اللون الأحمر هو لون العلم التركي الآن ، ولكن دلالة اللون الأحمر متعددة ، فالعلم الأحمر هو علم الشيوعيين ، وهؤلاء يضحون بالأنا – هكذا يفترض فكرهم – من اجل الكل . والذين يضحون بذواتهم – في الرواية – من اجل خلاص الكل هم اليهود . ولكن هؤلاء لا يضحون من أجل البشرية كلها ، وإنما من اجل الملة اليهودية كلها . وهكذا يكون بحثهم عن الخلاص بحثاً عنصرياً . وإن التقى وأفكار الشيوعيين جزئياً : تضحية الفرد من أجل المجموع .

يسعفنا النص المحيط في تقبل هذا التفسير الأخير . حين ندلف إلى الإهداء نقرأ ما يلي :

"في هذه الرواية رجلان مقصران ، مثلي ، بحق الأولاد والزوجة بسبب انشغالهما .

يقول الأول (العربي) :

"حاولت دائماً أن أنجز شيئاً يعادل غيابي ويعوضه أو يبرره ... سأجعلكم تفخرون أن كان لكم هذا الأب" .

ويقول الثاني (اليهودي) :

"هناك ما سيعوضهم عن افتقادي ... وهو الوطن الذي أساعد على بنائه" .

ولكن ...

أهو تبرير كاف ، ؟

وماذا لو فشل كل منا أنا وأبطالي في تحقيق ذلك التعويض ؟ سيكفينا أن نجد من يفهمنا .

فإلى الحبيبة إلهام ...

وإلى ولدي العزيزين زياد ومروان ...

الذين جعلني استغراقي في عملي أقصر في واجباتي نحوهم" .

ممدوح عدوان"[11]

ينصرف الثلاثة عن العائلة لانشغال كل واحد منهم عن عائلته بواجبه . واجب العربي ملاحقة الجاسوس اليهودي ، وواجب اليهودي العمل على بناء وطن قومي لليهود ، أما واجب ممدوح عدوان فهو الكتابة ، وعليه أن يخلص لها حتى ينتج فناً جميلاً . وهو بذلك يبني وطناً من الكلمات التي تصبح وطنه . ويقدم عدوان روايته بالنص التالي :

"أنني مستغرق في بناء رواياتي حتى أستطيع أن أكون قارئاً لها .. طوال أربعين عاماً أنت تكذب على الناس في كتابتك وتجهد نفسك لإقناعهم بان هذه هي الحقيقة"[12] .

وإذا استثنينا الروائي من الإهداء بقي رجلان محور تفكيره : العربي واليهودي . وقد يساعدنا هذا على تحديد دلالة العنوان . هل الأنا الناطقة لعبارة أعدائي هي أنا العربي ؟ وهل تعود الياء في عبارة أعدائي ، إذن ، على العرب ؟ وإذا كان جسد النص هو الذي يوضح هذا ، فإننا فيه لا نقرأ عن عرب ويهود وحسب ، بل إن العرب منقسمون على ذاتهم . لنقرأ العبارات التالية التي ترد على لسان إبراهيم :

"لم يبق أمامنا إلا أن نفكر بأننا عرب يجب أن نحمي هذه الأرض من الإنكليز واليهود والأنذال . والله العظيم نحس كأننا دائخون لا نفهم ما يجري . يا ليتها كانت حرباً صليبية كنا فهمناها . مسيحيون ضد إسلام . أوروبيون ضد مشرقيين . كانت سهلة . ولكن مسلمون وإنكليز وفرنسيون يهاجموننا . وعرب في الجيش العثماني يقاومونهم . خليفة المسلمين في استنبول يعلن الجهاد المقدس باسم الإسلام . والشريف حسين سليل الرسول يعلن الجهاد ضد العثمانيين الكفرة . حتى اليهود لم نعد نستطيع أن نفهمهم ، يهود يتبرعون للجيش العثماني ويدعون إلى التطوع فيه . ويهود يتجسسون لصالح الإنكليز ضد العثمانيين ، يهود يحتالون لسرقة الأراضي ويهجرون سكانها العرب ، ليقيموا فوقها مستوطنات تتحول إلى ملاجئ للعرب الهاربين من الأتراك ..."[13] .

وهكذا نلحظ أن ما قاله الإهداء حول انقسام العالم إلى عالمين عالم العرب وعالم اليهود سرعان ما يبدده النص الذي يفصح عن انشطار كل عالم من هذين العالمين إلى عوالم ، بل إن النص يظهر لنا ايضاً عوالم أخرى : عالم الإنجليز وعالم الألمان وعالم الأرمن ، وفوق هؤلاء كلهم عالم الأتراك .

ولئن كان مصطلح "وحدة الانطباع" خاصاً بفن القصة القصيرة ، فإنني – قارئاً للرواية – أكاد أجزم أن الانطباع الذي يخرج به المرء بعد قراءة أعدائي هو ما يقوله الإهداء الذي لجأ إلى التعميم لا إلى التخصيص ، فقد وضع العرب في كفة ، ووضع اليهود في الكفة المقابلة . ويظل العربي عارف الإبراهيم واليهودي (ألتر ليفي) حاضرين في الذاكرة بعد أن ينتهي المرء من قراءة الرواية . وإذا كانت الرواية تحفل بشخصيات عربية وأخرى يهودية ، فإن أقوال العربي واليهودي في الإهداء تصدر عن هذين .

يلاحق عارف الإبراهيم (ألتر ليفي) سنوات ، وينسى الاهتمام بابنه وبأسرته ويفقد في نهاية الرواية ابنه ، ويرد على لسانه ما يلي :

"أنا لو كنت باحثاً عن الدلال كنت تدللت منذ زمن ولم أنتظرك . أنا أعتز بأنني لم أقبل دلالاً . وهذا الماضي الذي ورائي هو شرفي وعزتي . وتريدني أن أذهب إليهم وأترك ماضي كله ؟ أنا لم أجنِ ثروة ولم أحقق مجداً ولم أستلم إيالة أو قائم مقامية . حتى أولادي لم أربهم جيداً . لم أجد الوقت لهم . أولادي أهملتهم من اجل واجبي .. كنت أذهب إلى البيت لآكل خبزاً وبصلاً وأنا أستطيع أن آكل الخواريف المحشية . أنام في غرفة مستأجرة أو في المكتب أو البرية ، وأنا أستطيع أن أنام في القصور والعلالي .."[١٤] .

غير أن عارف الذي يتطابق سلوكه وقوله ، يكاد يكون ، بين الشخصيات العربية ذات التوجه الإسلامي ، استثناءً . إن أكثر الشخصيات العربية والتركية التي تنضوي تحت لواء الدولة العثمانية وتعمل في سلكها هي شخصيات فاسدة تقبل الرشوة وتميل إلى المجون وتقصر في واجباتها الوظيفية ، وهي لا تخلص للدولة قدر تطلعها نحو مصالحها الفردية .. ولكن الحديث عن العرب والمسلمين يجبرنا على الحديث عن شخصيات عربية ذات حس قومي ، تتطلع إلى الاستقلال عن الأتراك وبناء الدولة العربية ، وهذه الشخصيات حقيقية معروفة ، وهي كثيرة ، وشخصيات روائية ، شخصيات قيادية مثل الشريف حسين والأمير فيصل وشكري القوتلي ، وشخصيات غير قيادية مثل إبراهيم وسميح ونادر . وتبدو هذه عموماً شخصيات إيجابية ينحاز إليها السارد[١٥] ، بل أن عارف الإبراهيم الذي يرى في ما تقوم به عملاً غير نظيف يعود ، في نهاية الرواية ، إلى الأخذ بقناعاتها ، ويتبنى وجهة نظر ابنه الذي اختلف مع أبيه وأيد

الثورة العربية . وهكذا نجده يدافع عن العرب ويهاجم الأتراك . يقول عارف مخاطباً (ألتر ليفي) :

"وتقول لي ، عينك بنت عينك : أنتم همج ، وتستشهد لي بما يفعله الأتراك . صل على النبي يا ابن الحلال . أنت ترانا الآن والزبل يطمنا . ترانا بعد أن لعن العصملية أفطاسنا . بعد أن أذلونا وجوعونا وقسرونا للتخلي عن لغتنا وقيمنا ومبادئنا . والله معك حق يا ابني يا إبراهيم. وتركونا ملاحقين بالجوع والمرض والجهل والفقر والتعتير . حتى صار الإنسان يتخلى عن دينه وعرضه وشرفه وأرضه ووطنه ؟ كأنك لا تعرف كيف كنا قبل أن يجئ هؤلاء الأنجاس. لا تعرف أنه كان لدينا مدن وحضارات وعلوم وآداب ..."[١٦] .

ويبدو (ألتر ليفي) هو الشخصية اليهودية الموازية لعارف إبراهيم ، ولكنه ، في ملته اليهودية ليس استثناء ، أنه يمثل الأكثرية ، ويكاد يكون الاستثناء معدوماً . وإذا ما غضضنا النظر عن شخصية رفقة أخت سارة ، رفقة التي تصدم عاطفياً فتفكر في الهجرة إلى أمريكا باحثة عن ذاتها ، متخلية عن فكرة إفناء الذات من اجل المجموع ، فإننا نجد أكثر الشخصيات اليهودية تشبه ، في سلوكها ، سلوك (ألتر ليفي) . يوصف هذا في الرواية كما يلي :

"لا فائدة . ما حول سمعه وقلبه ليس جداراً بل صخرة من العناد . استسلم ألتر في جلسته وراح يستعرض حياته والأعمال التي قام بها ، والناس الذين عرفهم والذين فقدهم . قفز بذهنه إلى الكثيرين بسرعة . وقفز بشيء من البطء إلى أولاده الذين لم يمنح نفسه فرصة التعامل معهم بحنان ومحبة . لكنه كان يحس بأن هناك ما سيعوضهم عن افتقاده وهو الوطن الذي يساعد على بنائه لهم . وزوجته منذ زمن طويل لا يعيشان كزوجين . ظروف العمل والمطاردة لم تتح لهما الفرصة لعيش هنيء ..."[١٧] .

صورة اليهود في الرواية :

تبرز لنا الرواية صورة لليهود من خلال الشخصيات العربية والتركية ، ولكنها في الوقت نفسه تصور نماذج يهودية عديدة تعبر هذه عن عالمها ورؤاها ، وتفصح عن مشاعرها وعلاقتها بالآخرين . إنها تتكلم عن ذاتها وتتكلم أيضاً عن الآخرين الذين تتصل بهم ، وتذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فتقول لنا ما يتصوره الآخرون عنها . إذن نحن في هذه الرواية نقرأ آراء الآخرين في اليهود ، ونقرأ أيضاً آراء اليهود في أنفسهم وفي غيرهم ، بل ونقرأ أيضاً تصور اليهود لتصور الآخرين لهم .

يقص السارد ، وهو كلي المعرفة ، عن عارف الإبراهيم الضابط العربي المسلم في الجيش العثماني ، ويبدي لنا ما يدور في خلده فيما يشاع عن اليهود :

هم يهود يريدون حرية ممارسة طقوسهم وعباداتهم . وهم مزارعون

يريدون استصلاح الأراضي . وهم مرابون يدينون بالفائدة . وهو ذليلون يقبلون الإهانات ويقومون بأقذر الأعمال وأحطها . وهم صاغة وساعاتية وأصحاب خمارات وبارات . وهم قوادون وشراميط. وهم مستخدمون وتجار خردوات . وهم في أعلى مناصب الدولة . وهم محميون بامتيازات فرضتها علينا الدول العظمى . وهم جواسيس للدول كلها ..."[١٨] .

ويفصح عارف في مواطن أخرى عن رأيه في اليهود – وهو رأي أظن أنه صادر عن ممدوح نفسه ، لأنه ثمرة قراءات كثيرة وثرية أنجز قسم من هذه الآراء في فترات لاحقة للفترة التي تجري فيها أحداث الرواية – يفصح عارف عن رأيه في اليهود قائلاً :

"في الغيتو ، في حارة اليهود ، كان اليهودي يبدو أكثر ارتباطاً . لا يخرج من الحارة إلا مضطراً . وإذا خرج فشخصيته المطاوعة المتقبلة الذليلة ، وقد هيأ نفسه لقبول خضوعه . يلقي السلام وينتظر الجواب . ويحمل شارة تدل عليه . وعلى دينه . ويفسح الطريق للقادم من أمامه أو من خلفه . وإذا لم يخرج استرخى وعرف نفسه واطمأن إليها .

أما في المزارع فالأمر يختلف تماماً . هناك أناس يمتلكون الأرض والمزارع وهم مستعدون للدفاع عنها ... واليهودي المسلح في المستوطنة لا يريد فقط أن يحمي المزرعة أو الأرض ، بل أن يحمي كبرياءه ويعزز موقعه الجديد : ها أنا أعود إلى حقيقتي ، ابن شعب الله المختار المتفوق على هؤلاء الهمج المحيطين بي ، مسلح بالمال والعلم . حين تحدثني حدثني باحترام ، حين أجيبك فهذه منة . وحين تجيبني فافعل كما تحيي أي باشا في الإيالة . أنا الخواجة . والخواجة هنا كلمة تساوي الباشا .. ونفسية العربي ابن البلد محفوظة ومبصومة . انه يكتفي بهذا الإحساس بالفوقية وهو يرى ماله يهدر ...

اليهودي إذا متفوق وهو مذلول ومباح . مثلما يكون متفوقاً وهو مسلح ومستقل . الفارق هو أن تفوقه في الحالة الأولى تفوق ذكي مراوغ يظهر الخضوع ، وفي الحالة الثانية تفوق استفزازي مشاكس يظهر التسلط وينتقم من ماضيه"[١٩] .

وهذا التصور لليهود أبرزه غير اليهود واليهود أيضاً لليهود . ويمكن القول إن التصور الأول لهم صادر عن غير اليهود لليهود ، وإن التصور الثاني لهم هو ما أبرزوه هم أنفسهم لذاتهم[٢٠] .

تجسد الشخصيات اليهودية التي صورها السارد ، ومن ورائه ممدوح عدوان ، هذه الصفات وصفات أخرى غيرها مثل صفة الذكاء اليهودي وجمال المرأة اليهودية ودعارتها . بل إن الصفات الإضافية تتكرر على لسان شخصيات يهودية قبل أن يجسدها الكاتب من خلال شخصيات . تحب رفقة ،

أخت سارة وهذه شخصية رئيسية كما سنرى ، تحب أفشالوم الشاعر ، وتصاب بصدمة عاطفية حين تعرف انه يحب سارة ، وتقرر الهجرة إلى أمريكا ، وحين يستاء منها (ألتر ليفي) لأنها لا تضحي بذاتها لأجل اليهود ، تخاطبه قائلة :

"ما الذي سأتركه ؟ الخوف الذي نتصبح به وننام عليه ؟ مكاننا ؟ نحن اليهود . أولاد الميتة .. البخلاء ، الدنيئون . حتى نحن النساء لا يروننا إلا شراميط . ألا تعرف انهم يرون اليهودية شرموطة ؟

- ....

- أريد أن أهاجر قبل أن أصبح شرموطة وجاسوسة معاً . العمل الذي يريدون أن يشتغلوه لا أستطيع القيام به . لا أعرف كيف تجمع معلوماتك أنت . لكن المرأة لا تستطيع أن تحصل على المعلومات إلا إذا كانت شرموطة ؟ أنا لا أستطيع ، أنا أريد استقراراً وبيتاً واحتراماً"[٢١] .

ولا تكاد الجلسة التي نطقت فيها بهذا الكلام تنتهي حتى تمنح جسدها لـ (التر ليفي) ، وحين يصحوان تسأله رفقه :

"- هل نحن شراميط"[٢٢]

وتفصح له أنها ، وهي معه في الفراش ، كانت تشعر أنها تضاجع أفشالوم ، فيما يقول لها أنه هو كان يشعر أنه ينام مع أختها سارة .

والتجسيد الحقيقي لليهودية الجميلة الذكية الجاسوسة وشبه العاهرة ، بل العاهرة يتمثل في سارة أخت رفقة . وهناك شخصيات يهودية أخرى لا تختلف كثيراً عن سارة في ممارسة الجاسوسية أو العهر مثل ليديا واستر وصاحبة الفندق الذي يتحول إلى مكان دعارة وملتقى الجواسيس ، والخضرة والدة (ألتر ليفي) التي هي جاسوسة بامتياز .

تتزوج سارة من (حاييم) وتقيم في اسطنبول ، ولكنها سرعان ما تهجره عائدة إلى فلسطين لتسخر حياتها من اجل خدمة شعبها اليهودي حتى يقيم دولته . ولأجل هذا تقيم علاقات مع جمال باشا حتى تضمن حركة اليهود وتحصل منه على المعلومات . إن سارة نموذج المرأة اليهودية التي تكرر حضورها في الأدب العربي ، ويعيد بعض الدارسين هذا النموذج إلى (أستير) اليهودية التي أنقذت شعبها ، حين تزوجت من الملك الفارسي (أحشويروش) ، من ظلم الوزير (هامان بن همدانا) ، بل إنهم يرون أن ما قام به إبراهيم ، وهو في مصر ، يوم ادعى أن زوجته سارة هي أخته لكي ينجو ، هو ضرب من موافقة اليهود أنفسهم على هذا السلوك[٢٣] .

تبرز شخصية الديوث اليهودي في الرواية من خلال شخصية (أرون رونسون) العالم الخبير بالزراعة ، هذا الذي يقدم خدمات جليلة لجمال باشا من اجل مكافحة الجراد وتطوير الزراعة .

لا يمانع (آرون) ، حين يبدي جمال باشا إعجابه بأخت (أرون) ، لا يمانع

من أن تظل أخته سارة لدى الباشا الذي هو زير نساء . إن مصلحة الشعب اليهودي ومستقبله ، في نظر (آرون) ، يجعلانه لا يكترث كثيراً لما يكترث له الإنسان العربي ، علماً بأن الرواية تبرز لنا نموذجاً للمرأة العربية لم يظهر في حدود ما أعرف ، ظهوراً لافتاً في الرواية العربية ، وهو نموذج المرأة العربية التي لا تمانع في استغلال جسدها من أجل خدمة قضية أمتها ، ويتجسد هذا النموذج في نهال حامد زوجة الضابط السوري حسام الذي قتل .

لنقرأ المقطعين التاليين اللذين يبدو فيهما صمت (أرون) إزاء طلب جمال باشا منه أن يرسل له أخته :

"قال الباشا : بدل أن تفكر في مغنية أو راقصة لماذا لا تفكر في جلب أختك سارة لنتسلى معاً ؟ ابتسم آرون : إذا شاء الباشا أرسل من يبحث عنها"[٢٤]

.

وأيضاً :

"وكأن الباشا تذكر : ولكن أين أختك سارة ؟ ألم تقل إنك أرسلت في طلبها ؟

- نعم يا باشا ، سيجدونها . هي دائماً بين الأيادي يا باشا"[٢٥] .

غير أن ما تظنه قوادة ليس في نظر اليهود كذلك ، وما نظنهن عاهرات هن في نظر اليهود مناضلات . هكذا نجد (ألتر) يخاطب سارة :

"انتبهي جيداً يا سارة ، أنا أشغلهن من اجل قضية تعرفينها . ولست قواداً أجني المال من ورائهن . أنا اكن احتراماً كبيراً لبناتنا اللواتي يتحملن قذارة هؤلاء المسلمين والأتراك من أجل المعلومات . وأؤكد لك أنهن مناضلات يخدمن قضيتنا ، ويرضين الله حتى في ما لا تحبين تسميته"[٢٦] .

وإذا كان (ألتر) يوظف الفتيات لجلب المعلومات ، حتى لو كلفهن هذا توظيف الجسد، فإن (يوسف ليشافسكي) يرفض أن يكون قواداً . تلجأ سارة إليه وتطلب منه أن يذهب معها إلى فندق أستر لكي تضاجع ضابطاً ألمانياً وتحصل منه على معلومات . وحين يلاحظ يوسف أنها تغازل الضابط يستاء ، وحين يخبر (ليوفا) بالقصة يعلق :

"أحس أنني أتحول إلى قواد"[٢٧] .

وهو ، في تعليقه ، يرفض أن يكون كذلك .

اليهودي المتفوق الذكي :

يبرز هذا النموذج من خلال شخصية (آرون رونسون) وهو نموذج أبرزته الرواية الصهيونية وركزت عليه ابتداء من رواية (ثيودور هرتزل) "أرض قديمة جديدة" مروراً برواية (آرثر كوستلر) "لصوص في الليل" ورواية (ليون أوريس) "أكسودس"[٢٨] .

(آرون روتسون) عالم عبقري فذ يخلص لعلمه ، ونظراً لذلك يقربه جمال باشا منه حتى يفيد من خبراته ، وحين يحتج بعض الضباط على عدم إلقاء القبض على (ألتر ليفي) يخاطبهم جمال باشا قائلاً :

"كلما جلبت واحداً ليعاونني ظللتم وراءه حتى تطفشوه ، ألم تقلقوا رأسي بالنق عن آرون رونسون . يهودي . يهودي ؟ ماذا يعني أنه يهودي ؟ من الذي تصدى لحملة الجراد والطاعون ؟ أليس آرونسون ؟ من الذي يسعى لتطوير الزراعة ؟ آرونسون . ومع ذلك صار درجي مليئاً بالتقارير عنه . يرسلون إليه من أميركا ليستفيدوا من خبراته الزراعية ، ونحن نشك فيه ونريد أن نطفشه ... لماذا ؟ لأنه يهودي"[٢٩] .

وليست الإشادة بما أنجزه اليهود على الأرض فكرة يهودية وحسب . لقد أقر الفلسطينيون في بعض نصوصهم بجهود اليهود . كان إبراهيم طوقان الشاعر الفلسطيني يهاجم اليهود في أشعاره ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، كان يعاير بني قومه بهم لأن اليهود يعملون فيم يقتتل أهل فلسطين على الزعامة ، وعلى الرغم من أن طوقان قال :

أعداؤنا ، منذ أن كانوا ، صيارفة ونحن ، منذ هبطنا الأرض ، زرّاع .

أنه خاطب بني قومه :

اذهبوا في البلاد طولا وعرضا وانظروا ما لخصمكم من جهود

ونقرأ الشيء نفسه تقريباً في قصة غسان كنفاني "الصغير يستعير مرتينة خاله ويشرق إلى صفد" . يعبر الأب عن غضبه من ابنه الدكتور الذي تعلم وأراد أن يفتتح عيادته في المدينة لا في الريف ، ويخاطب ابنه في هذا :

"- انظر إلى اليهود ، حين يجيء الواحد منهم ينصرف إلى العمل في القرى ، لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم"[٣٠] .

شعور اليهود بالتفوق والذكاء ينعكس ، بدوره ، على نظرتهم إلى الشعوب الأخرى ، يحتقر اليهودي الذكي الآخرين ويرى فيهم أغبياء غالباً . إن غباء الآخرين هو ما يبرز ذكاء اليهودي وتميزه ، وحين يلاقي اليهود الذكي ذكياً من غير اليهود فإنه لا يستطيع إنجاز ما يطمح إليه ، ولذلك لا تنجح سارة في فك مغاليق شخصية الأمير فيصل ، كما ينجح (ألتر ليفي) في تجسسه على الأتراك . حين تخاطب رفقة (ألتر) سائلة إياه إن كان لا يمل من التعامل مع أغبياء يجيبها قائلاً :

"وكيف أشتغل شغلي لولا أنهم أغبياء ؟ تصوري أنني تبرعت لحملة السويس بكمية من الأدوية لكي أكسب ود الباشا وصداقته ... تعرفين ما هي هذه الأدوية ؟ إنها مكومة عندي في المستودعات منذ سنوات . انتهت فاعليتها وصلاحيتها . وبينها أدوية لأمراض نسائية . ومع ذلك كانوا ممنونين وأرسلوها كلها إلى الجبهة ، أدوية نسائية إلى الجبهة . تصوري"[٣١] .

نموذج جديد : اليهودي الشاعر :

يخاطب (ألتر) رفقة قائلاً :

"لا تعرفين كم أحب هذا الكلام مع أنني لا أحب أفشالومكم هذا . إنها المرة الأولى التي صرنا نسمع فيها عن اليهودي صفة غير الجشع والربا وحب المال وإذلال النفس ، ها نحن الآن نصنع يهودياً يحب الأرض"[٣٢] .

ولئن كان هذا الكلام صدر عن شخصية روائية ، فإنني أرى أنه في النهاية صادر عن ممدوح عدوان نفسه الذي يريد أن يقول لنا إنه يقدم في روايته نموذجاً يهودياً جديداً ، لم تقدمه الأعمال الأدبية العربية التي صدرت قبل روايته . وحسب ما أعرف فلم تقدم الرواية العربية نموذج اليهودي الشاعر . وأقول إن الكلام هذا هو في النهاية صادر عن ممدوح عدوان لأن المرء وهو يقرأ الرواية يتساءل باستمرار إن كان كثير من الكلام الذي تنطق به الشخصيات هو كلامها أم أنه كلام الشاعر والكاتب الروائي ممدوح عدوان ، ولعل هذا وحده يحتاج إلى دراسة مفصلة ، وما يهم هنا هو صورة الشاعر اليهودي كما تقدمه الرواية التي كتبها شاعر قبل أن يغدو روائياً .

تبرز رفقة الصورة التالية لأفشالوم :

"شاب مثل الزهرة ، متعلم وفهمان وحلو . ما عرفه أحد إلاّ أحبه . حتى العرب أحبوه لأنه خيّال ولأنه يحفظ القرآن ، ويحكي العربية ، ويغني أغاني البدو ، ولأنه يعرف كيف يكتشف الشعر في كل شيء . قال لي مرة إن أباه سخر منه عندما قال له : أنت شاعر يا أبي ، ولكنه ظل مصراً على أن أباه شاعر . كان يقول : وهل يذهب إلى الحضيرة التي كلها مستنقعات ويعمل على تجفيفها ليستصلح الأرض فيها لولا أنه شاعر ؟ قال له آرون :

أبوك يحب الأرض لأنه صهيوني بدمه . ويدافع أفشالوم : لكنه يحبها محبة الشعراء . أتعرف يا آرون ماذا قال لي حين سألته لماذا يجيء ويتعذب في هذه المستنقعات ؟ قال لي : إذا مرضت أمك تتركها أم تداويها ؟ قلت له : أداويها . قال : وهذه الأرض مريضة بالمستنقعات ، يجب أن نداويها . صار يعطيها دواء لا يخطر لأحد . وزرع أشجار الكينا ليجفف المستنقعات"[٣٣] .

حقاً إن الصورة التي رسمت لأفشالوم هنا هي الصورة التي أبرزتها امرأة تحب (أفشالوم)، إلا أن علينا ألا ننسى أن ممدوح عدوان نفسه شاعر ،

وأنه كان يسقط بعض تجاربه على شخوصه . فهل الصورة التي ظهرت للشاعر في الرواية هي صورة الشاعر في ذهن ممدوح عدوان ؟

(أفشالوم) الشاعر هو موضع حب سارة المتزوجة وأختها رفقة . وهو أيضاً موضع ثقتهما فهما تعبران له عما يجول في خاطرهما . وتخون سارة زوجها لأجله وتحدثه بكلام لا تستطيع أن تحدث أحداً غيره به ، فقط لأنه شاعر[٣٤] وهي لا تعري جسدها أمامه وحسب ، بل تعري أمامه كل شيء ولا تستر شيئاً . وهي ترى بقاءها مع زوجها خيانة لـ (أفشالوم) وخيانة لنفسها .

و(أفشالوم) الذي يعمل مع أخيها (آرون) ، ويتجسس من اجل بناء الوطن اليهودي كما يتجسس (آرون) ، يظل مخلصاً لـ (آرون) حتى أنه يبتعد عن سارة ورفقة لأنه لا يريد أن يخون صديقه .

والشاعر يحب أن يجلس ويشرب ويقرأ ولا يحب الذهاب إلى المبغى لأنه لا يحب الأجواء الرخيصة ، وهو يسعى إلى عزة الشعب اليهودي ، ويشعر بأن اليهود أبطال أساطير ، ويطمح إلى أن يكونوا مثل آخيل وأغاممنون وهكتور وأليس و... هيلين . وتتخيله سارة إنساناً دوره الوحيد هو أن يحب وأن يترك الحرب لغيره[٣٥] .

ولا تستطيع سارة تصور كيف تصف حبها لهذا الشاعر : "إنه مثل الريح . يطوح بها هنا وهناك . يلقيها تارة على الأرض ، ويقذف بها تارة أخرى إلى الغيوم . ويجعلها ترغب في أن تكون حورية أحلام تارة ومقاتلة ببندقية تارة أخرى . أما هو فيظل هادئاً وغامضاً مثل البحر الذي يتجاهل أنه دمر مدناً وأغرق سفناً"[٣٦] .

وسارة وأختها رفقة على استعداد لأن تمنحا جسديهما لـ (أفشالوم) دون مقابل . وسارة التي لا تفعل ذلك مع أحد ، بل إنها تترك زوجها لأجل (أفشالوم) ، سارة التي يعرض عليها (ألتر) ما تريد حتى يحظى بحبها ، سارة التي يدور وراءها جمال باشا ، وتوافق على النوم معه حتى تحصل منه على معلومات حساسة وخطيرة ، سارة تسعى وراء (أفشالوم) الشاعر وتتمناه وتلاحقه حتى وهو يتهرب منها .

الخلاصة

تبدو صورة اليهود في رواية "أعدائي" ، في جانب كبير منها ، غير مختلفة عن الصورة التي ظهرت لهم في النصوص الأدبية العربية السابقة . اليهود بخلاء وابتسامتهم ابتسامة صفراء وهم أذلاء وجواسيس وماكرون وأذكياء ، رجالهم ديوثون ونساؤهم عاهرات .

وتبدو أيضاً ، في جانب منها ، غير مختلفة عن الصورة التي رسمها

اليهود لأنفسهم ورسمها بعض الأدباء العرب لهم متأثرين بما شاهدوه من خلال معايشة اليهود أو ملاحظة ما يقولون به . بدت صورة اليهودي في الرواية الصهيونية صورة إيجابية ، انه المتفوق والمخلص لشعبه والمجتهد في زراعة الأرض وتحويلها من صحراء إلى جنة ، والداهية الذي يستطيع الانتصار على الآخرين .

وتتكرر الصورة الإيجابية والصورة السلبية لليهود على لسان غير اليهود ولسان اليهود أنفسهم . كأنما يقول عدوان إن الصورة التي أبرزها لليهود هي تلك الصورة التي أبرزها غيرهم لهم وتلك التي أبرزوها لأنفسهم . ويضيف عدوان إلى هذه الصور صورة جديدة لم نألفها في الأدبيات العربية تحديداً ، وهي صورة اليهودي الشاعر .

ولئن كان عدوان أبرز صورة المرأة اليهودية الجميلة الجذابة التي تسخر جسدها لإنقاذ أبناء شعبها وخدمتهم وعززها ، في الوقت نفسه ،من خلال إبرازها والكتابة عن أكثر من امرأة، فإن ما يعد شيئاً لافتاً في نصه أنه كتب عن امرأة عربية تسلك السلوك نفسه الذي سلكته المرأة اليهودية ، وترك المرأة العربية ، وهي نهال حامد ، تعبر عن إصرارها على سلوكها:

"اليهود يستخدمون نساءهم وأموالهم لتحقيق أغراضهم .. لماذا يقف الأمر عائقاً أمامنا؟ نستطيع أن نستخدم الأسلحة ذاتها ... وبجسدي هذا الذي يشتهونه ويحتقرونه كنت أحقق أكثر مما يحققون بمسدساتهم وشواربهم ..."(٣٧)

.

لم يبرز عدوان صورة سلبية لليهود وحسب ، بل أبرز صورة إيجابية ، ولم يكرر عدوان ما قيل عن اليهود وحسب ، بل أضاف لهم صورة جديدة !!

كتب لندوة جامعة دمشق التي ستعقد في ١٢ تشرين أول / ٢٠٠٢ .

[1] حول حياته انظر الأب روبرت كامبل ، أعلام الأدب العربي المعاصر : سير وسير ذاتية ، بيروت ، ١٩٩٦ ، المجلد الثاني ، ص٩١٧.

[2] صدرت الرواية عن دار رياض الريس ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

[3] انظر مجلة الكرمل (رام الله) ، ع٦٨ ، صيف ٢٠٠١ ، ص٢١٠ .

[4] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٥٠٤ .

[5] السابق ، ص٣٢ .

[6] السابق ، ص٣٣ .

[7] السابق ، ص٣٣ .

[8] السابق ، ص١٣ .

[9] حول تعريف مصطلح النص المحيط ، انظر : شعيب حليفي ، النص الموازي للرواية "استراتيجية العنوان" ، مجلة "الكرمل" ، ع٤٦ ، ١٩٩٢ ، ص٨٢ . وجميل حمداوي ، السيموطيقا والعنونة ، مجلة "عالم الفكر" ع٣ ، مجلد ٢٥ ، ١٩٩٧ ، ص١٠٣ .

[10] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٢١٣ ، وترد هذه العبارات في الفصل الثالث عشر الذي يأتي في قسمه الأول على تجربة المناضلين السوريين في السجون العثمانية ، ومن هؤلاء المساجين يكون إبراهيم الذي يستمع إلى شكري الأيوبي يتحدث عن تجاربه ونضاله .

[11] السابق ، الإهداء . ص٩ .

[12] السابق ، ص١١ .

[13] السابق ، ص٣٤٠ .

[14] السابق ، ص٤٧٩ .

[15] السابق ، الفصل الثالث عشر من الرواية ، وفيه نقرأ عن فارس الخوري وشكري القوتلي وشكري الأيوبي والدكتور أحمد قدري.

[16] السابق ، ص٤٨٠ .

[17] السابق ، ص٤٥٦ .

[18] السابق ، ص١٤ .

[19] السابق ، ص٢٦٦ وما بعدها .

[20] يمكن العودة هنا إلى الدراسات التي أنجزت حول صورة اليهود في الأدب العربي وصورة اليهود في الأدب الصهيوني ، لملاحظة ذلك. وأذكر من هذه الدراسات دراسة محمد باكير علوان : "اليهود في الأدب العربي بين عامي ١٨٣٠ – ١٩١٤ ، (ترجمة عادل الأسطة) ، مجلة الكاتب المقدسية ، ع١٤٨ ، تشرين أول ١٩٩٢ . ص٢٣-٣٣ . ودراسة غسان كنفاني في الأدب الصهيوني ، وقد صدرت في كتاب في عام ١٩٦٦ ، وفيها تناول شخصية اليهودي في الروايات الصهيونية .

[21] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٣٧ .

[22] السابق ، ص٤٢ .

[23] حول ذلك انظر : عادل الأسطة ، الديوث اليهودي ... هل هو اختراع عربي ؟ مجلة كنعان (رام الله) ، ع١٠١ ، نيسان ، ٢٠٠٠ .

[24] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٢٢٥ .

[25] السابق ، ص٢٣٢ .

[26] السابق ، ص٢٤٥ .

[27] السابق ، ص٣٤٥ .

[28] حول اليهودي في هذه الروايات انظر : غسان كنفاني ، في الأدب الصهيوني .

[29] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٣٩ .

[30] غسان كنفاني ، الآثار الكاملة : القصص القصيرة ، بيروت ، ١٩٨٧ . ط٣ ، ص٦٤١ . ولكن كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا" (١٩٦٩) يترك بطله سعيد . س يعبر عن أن ما يظنه اليهود معجزة ، كان بإمكان أهل فلسطين ، لو ظلوا في أرضهم ، أن ينجزوه ، وأن ينجزوا أكثر منه . حول الرواية وهذا انظر : عادل الأسطة ، اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٣ز١٩٨٧ ، القدس ، ١٩٩٢ ، ص١١٤ وما بعدها .

[31] ممدوح عدوان ، أعدائي ، ص٣٥ وما بعدها .

[32] السابق ، ص٣٩ .

[33] السابق ، ص٣٩ .

[34] السابق ، ص١١٤ .

[35] السابق ، وينظر القسم رقم ٧ من الفصل الثامن ، ص١٤١ وما بعدها .

[36] السابق ، ص١٤٤ .

[37] السابق ، ص٦٥ .